٣٧ ألْوَاحُ مُوسَى

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ :

«لَيْسَ الخَبرُ كالمعَايَنَة، قَالَ اللهُ لموسَى : إنَّ قَوْمكَ صَنَعُوا كَذَا وكَذَا ، فَلَمْ يُبَالِ، فَلَمَّا عَاينَ أَلْقَى الأَلْوَاحَ»(١)

يقول الحق سبحانه:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ(١٤٢)﴾

(الأعراف)

هذا الوَعْد كان لإعطاء موسى المنهج ، فحينما كلَّم الله سبحانه وتعالى موسى بجانب الطور (٢) كان هذا لإبلاغ موسى عليه السلام أنه رسول من ربِّ العالمين، وأنه أرسله ليخلِّص بنى إسرائيل من طغيان فرعون وعذابه ، وأنه سيمدُّه بآيات ومعجزات ، حتى يقتنع فرعون وقومه أن موسى رسول من الله تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٧١)، والطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٤٥١) ، والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٢١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .قال الحاكم :«حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ولفظ أحمد:«ليس الخبر كالمعاينة، إن الله أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت».

(٢) الطور : جبل بسيناء نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر . ويُسمَّى أيضاً «طُورِ سَيْنَاءَ» (المؤمنون :٢٠).«وَطُورِ سِينِينَ» (سورة التين :٢) .(القاموس القويم ١/ ٤٠٨)

وذلك بعد تكليف موسى بالرسالة وذهابه إلى فرعون ، وما حدث مع السحرة ، ثم نجاة موسى وقومه ، بأنْ شقَّ الله جَلَّ جلاله لهم البحر [1] ، هذا فى وقت لم يكُنْ المنهج قد نزل بعد ، ولذلك فبمجرد أن نجَّى الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى وقومه وأغرق فرعون ، كان لا بُدَّ أن يتم إبلاغ موسى بالمنهج.

وكان الوَعْد يشمل أربعين ليلة ، هذه الليالي الأربعون حُدِّدَتْ كثلاثين أولاً ، ثم أتمها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعشر أخرى.

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أنْ تحدث عملية إنجاء بنى إسرائيل أنه سبحانه سيُنزِل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خَلْق الله لتسير حركة حياتهم عليه.

لكن ما إنْ ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل، فى مدة الثلاثين يومًا ، ولم يشأ الله أنْ يُرسِل موسى بعد الثلاثين يوماً [2]، بل أتمها بعَشْر أُخَر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يُعنِّفُهُ ، ويشتد عليه ، ويأخذ بلحيته يجرُّه إليه ، إذ كيف سمح لبنى إسرائيل أن يعبدوا العجل.

وفى ذلك يقول الحق على لسان هارون:

﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ (طه)

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣) (الشعراء).

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٤٣) : «الأكثرون على أن الثلاثين هى :ذو القعدة والعشر عشر ذى الحجة. قاله مجاهد ومسروق وابن جريج».

وقد كان موسى ـ عليه السلام ـ قد أوصى هارون بأن يخلفه فى قومه ، أى : أن يكون خليفة له فيهم إلى أن يرجع ، والحق سبحانه يقول: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾ (الأعراف)

وهو قَوْل فيه تحنُّن، أى: أن موسى يقول لأخيه هارون: لى بك صِلَةٌ قبل أن تكون شريكاً لى فى الرسالة ، فأنا أَخٌ لك وأنت أخٌ لى ، ومن حَقِّى عليك أن تسمع كلامى وتخلفنى، فالأُخوَّةُ مقرونة بأنك شريكٌ معى فى الرسالة.

إذن : نجد أن موسى قد قدَّم حيثية الأُخوَّة ، والمشاركة فى الرسالة . وأكَّد عليه السلام بكلمة «قومى» أنهم أعزّاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذى يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نَهياً فاعلموا أن موسى هو أوَّل مَنْ يُطبِّقه على نفسه.

وقيل : كان موسى ـ عليه السلام ـ قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولا بُدَّ أن يكون الإعداد بطُهْر وبتطهير ، وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكاً وتسوك به ليُذهب رائحة فمه.

فأوضح الحق سبحانه له: أما علمتَ يا موسى أن خُلُوف [1] فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أنْ تُقبِلَ علىّ بريح المسك فزِدْ عشرة أيام حتى تأتى كذلك [2].

(١) الخلوف : تغيُّر ريح الفم لتأخر الطعام . (لسان العرب ـ مادة : خلف) .

(٢) أخرج الديلمى فى «الفردوس بمأثور الخطاب» (٣/ ٤٢٧) (حديث رقم ٥٣٠٩) عن ابن عباس رفعه : «لما أتى موسى ربه ، وأراد أن يكلمه في الثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن، فكره أن يكلم ربه عزوجل ، وريح فيه ريح الصائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه حين أتى موسى: لم أفطرت ـ وهو أعلم بالذى كان ـ قال : إنى يارب كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب =

قال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ؛ لأن الثلاثين يوماً هى الأيام التى عبد فيها القوم العجل بعد موسى ، فكان ولابُدَّ أن تكون هناك فترة من الفترات ، حتى يميز الله الخبيث من الطيب.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

(الأعراف)

والميقات هو الوقت الذى يُعَدُّ لعمل من الأعمال ، وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة ، وقال له ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (الأعراف)

والاصطفاء هو استخلاص الصَّفْوة ، والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل، بالإضافة إلى شرف تكليم الله له.

وحينما خصَّ الله موسى بميزة أن تكلّم إليه حصل من موسى استشراق اصطفائى، وكأنه قال لنفسه: ما دام قد كلّمنى فقد أقدر أنْ أراه ؛ لأن استطابة الأُنْس تمدُّ للنفس سُبُلَ الأمل في الامتداد فى الأشياء ، فقال : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴿١٤٣﴾﴾ (الأعراف)

فقال الحق سبحانه له:

= الريح. قال : أما علمت يا موسى أن فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ، ارجع فصم عشرة أيام ففعل موسى الذى أمره ربه، فلما كلم الله موسى قال له ما قال .

﴿ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا (١٤٣) ﴾ (الأعراف)

وسبحانه هنا يُعلِّل لموسى بعملية واقعية ، فأوضح : لن ترانى، ولكن حتى أُطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكِّنك من رؤيتي انظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك ، فإنِ استقرَّ مكانه يمكنك أنْ ترانى.

إن الجبل بحُكْم الواقع ، وبحُكْم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من الإنسان ، وأصْلَب منه وأشدّ ، ولما تجلّى ربُّه للجبل اندكَّ.

إذن: فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خَلْقه ، ولكن المهم أيقْوى المستقبل للتجلِّى أو لا يقوى؟

وبعد ذلك أراد الله أنْ يلفتنا لَفْتةً تصاعدية ، ويُبيِّن لنا أن موسى قد صَعِق لرؤية المتَجلَّى عليه ، فكيف لو رأى المتجلِّى؟

ويقول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام:﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً (١) وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ﴾ (الأعراف)

(١) قد ذكر السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٥٥٩) آثاراً ، ذكر فيها بعض هذه المواعظ المكتوبة فى التوراة. منها.

ـ اتق الله يابن آدم ، وإذا شبعت فاذكر الجائع. أخرجه أحمد فى الزهد عن خالد الربعى.

ـ ابن آدم ، ارحم ترحم ، إنه من لا يَرحم لا يُرحم ، كيف ترجو أن أرحمك وأنت لا ترحم عبادى. أخرجه أحمد عن قتادة.

ـ يابن آدم ، لا تعجز أن تقوم بين يدى فى صلاتك باكياً ، فإنى أنا الله الذى اقتربت لقلبك ، وبالغيب رأيت نورى. أخرجه أحمد وأبو نعيم فى الحلية عن مالك بن دينار. =

ونحن نعرف الألواح ، وكُنَّا نكتب عليها قديماً ، وللكتابة على الألواح سبب ، فقديماً كانوا يكتبون على أيِّ شيء مبسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات، فمثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذى أتاح لنا معرفة تاريخهم.

وكان العرب يكتبون على اللُّحف المأخوذة من النخل ، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح ، أخذوا منها قطعة العظم المبسوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جداً لديهم ، وصار كل مكتوب عليه يُسمُّونه لَوحاً.

لقد أوضح سبحانه أنه كتب فى الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة، والموعظة تعنى ألاّ تُنشِيء حُكْماً للسامع ، بل تَعِظُه بتنفيذ ما عُلِم له من قبل؛ ولذلك يُقَال : واعظ ، وهو الذى لا يُنْشيء مسائل جديدة ، بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويَعظُه بما يعلم.

والحق سبحانه يأمر موسى أن يأمر قومه أنْ يأخذوا بأحسنها ، فيقول تعالى : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴿١٤٥﴾ ﴾ (الأعراف)

فالإنسان إذا روَّض نفسه وذلَّلها وعوّدها على الأحسن يكون قد فَهِم عن الله ، فهناك حَسَن وهناك أَحْسَن ، فلتأخذوا بالأحسن منهما.

= ـ ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ قلبك غنى وأسُدّ فقرك ، وإن لا تفعل أملأ قلبك شغلاً ولا أسدّ فقرك. أخرجه أحمد وأبو نعيم عن خيثمة.

ولكن بنى إسرائيل لم يعملوا وَفقْ منهج الإيمان ، بل إنهم عبدوا عِجْلاً صنعه لهم السامرى [1] من الذهب الذى سرقوه من أهل مصر ، فقال تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ (الأعراف)

لقد احتال بنو إسرائيل على أهل مصر، وأخذوا منهم الحلى كسلفة سيردونها من بعد ذلك [2]، ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحلى معهم ، وغرق قوم فرعون وبقيتْ الحليّ مع قوم موسى، وصنع موسى السامرى من ذهب هذه الحليّ عِجْلاً.

وقد صنعه السامرىّ من الذهب ، وكأنه يريد أنْ يتميز عن الآلهة التى كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهاً نفيساً ، فصنعه من الحليّ المسروقة، وصنعه بطريقة تجعل هذا العجل الجسد إذا ما استقبل من دُبره هَبَّة الهواء صنعتْ وأحدثتْ فى جوفه صوتاً يشبه صَوْت وخُوار البقر الذى يخرج من فمه.

---

(١) السامرى : رجل من منافقى بنى إسرائيل، أغواهم بعبادة عجل صنعه كعجل أبيس من الحليّ أثناء غياب موسى ـ عليه السلام ـ لمناجاة ربه. (القاموس القويم ١/ ٣٢٧) . والسامرة : قبيلة من قبائل بنى إسرائيل قوم من اليهود يخالفونهم فى بعض دينهم، إليهم نسب السامرى الذى عبد العجل. (لسان العرب ـ مادة : سمر).

(٢) قال قتادة فى قوله ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾(١٤٨: الأعراف) استعاروا حلياً من آل فرعون، فجمعه السامرى فصاغ منه عجلاً فجعله الله جسداً لحماً ودماً له خوار . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٥٦٣).

وقد اختار السامرى العجل ؛ لأنهم حين خروجهم من مصر ، رأَوْا قدماء المصريين وهم يعبدون العجل لمزية فيه ، فقد كانوا يروْنَ فيه مظهر قوة ، كما عبد الآخرون الشمس حين رأوا فيها مظهر قوة ، وكذلك مَنْ عبدوا القمر والنجوم ، وقدماء المصريين عبدوا العجل ؛ لأن فيضان النيل كان يغمر الأرض بالمياه ، وكانوا يستخدمون العجل حين يريدون حَرْثَ الأرض.

وكان العجل أيِّداً ، أى : قوياً شديداً فى حَرْث الأرض ، وهذا مظهر من مظاهر القوة ، ولكن كيف اتخذ قوم موسى من بعده عِجْلاً يعبدونه بعد أن أتمَّ عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون وآله؟

وهنا أوضح لنا لله أنه جاوز ببنى إسرائيل البحر ، ومروا على قوم [1] يعبدون الأصنام ، فقالوا لموسى عليه السلام:

﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (الأعراف)

وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله ؛ لأن العبد لا بُدَّ أن يتلقَّى من المعبود أوامر، وأن يكون عند المعبود منهج يريد من العبد أن يُنفِّذه ، وأن يأتى المنهج بواسطة رسل يُبلِّغون رسالات الله وكلام الله للبشر.

أما الذين يعبدون الشمس ـ مثلاً ـ فنسألهم: لماذا تعبدونها؟ وما المنهج الذى أرسلتْه الشمس لكم؟ وهكذا يبطل أمامنا كل عبادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضى أمراً ونَهْياً فى «افعل» و «لا تفعل»

(١) قال قتادة :هم قوم لخم. وقال أبو عمران الجونى: هم لخم وجذام. (الدر المنثور ٣/ ٥٣٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٤٢) : «قال بعض المفسرين : كانوا من الكنعانيين. وقيل : كانوا من لخم».

واتخاذ العجل فى ذاته ليس معصية إذا اتخذته للحرْث أو للذبح لتأكل لحمه ، ولكن المعصية هى اتخاذ العجل معبوداً ، ولم تعبدوه سِراً بل عبدتموه جَهْراً ، ولذلك فهو أمر ليس محتاجاً إلى شهود ولا إلى شهادة ؛ لأنه حَدَث عَلَناً وأمام الناس كلهم.

وقد جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ ببينات ومعجزات كثيرة كانت تكفى لتملأ قلوبكم بالإيمان ، وتجعلكم لا تعبدون إلا الله ، فلقد شَقَّ لكم البحر ومررتُم فيه وأنتم تنظرون وترون.

أى : أن المعجزة لم تكُنْ غَيْباً عنكم ، بل حدثتْ أمامكم ورأيتموها ، ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله ، بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلهاً من دون الله وعبدتموه ، فكيف تدَّعُون أنكم آمنتم بما أُنزِل إليكم ، لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلهاً.

وبعد أن ذكّرهم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بكُفْرهم بعبادتهم للعجل ، وكان هذا نوعاً من التأنيب الشديد والتذكير بالكفر ، أراد أنْ يُؤنِّبهم مرة أخرى ، وأنْ يُذكِّرهم أنهم آمنوا خَوْفاً من وقوع جبل الطور عليهم ، ولم يكُنْ الجبل سيقع عليهم ، لأن الله لا يقهر أحداً على الإيمان ، ولكنهم بمجرد أنْ رَأَوْا جبل الطور فوقهم آمنوا.

ولا بُدَّ أنْ نؤمن أن رفع جبل الطور فوق اليهود لم يكُنْ لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يُقال : إنهم أُجبروا على ذلك ، ولكن اليهود قوم ماديون

لا يؤمنون إلا بالمادة ، والله تبارك وتعالى أراد أن يُريهم آية مادية على قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله.

ولقد قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا(١) فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)**﴾ (البقرة)

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يُصوِّر لنا ماديتهم ، فالحب أمر معنوى، وليس أمراً مادياً ؛ لأنه غير محسوس ، وسبحانه يريد أنْ يعطينا الصورة الواضحة الكاملة فى أنهم أُشْرِبوا العجل ذاته ، أى : دخل العجلُ إلى قلوبهم.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يلفتنا إلى الشيوع فى كل شىء بكلمة (أُشْرِبُوا) ؛ لأنها وصف لِشُرْب الماء ، والماء يتغلغل في كل الجسم ، والصورة تُعرِب عن تغلغل المادية فى قلوب بنى إسرائيل ، حتى كأن العجل دخل فى قلوبهم ، وتغلغل ، كما يدخل الماء فى الجسم ، مع أن القلب لا تدخله الماديات.

ويقول سبحانه عنهم:

﴿**وَلَمَّا سُقِطَ(٢) فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)**﴾ (الأعراف)

---

(١) أُشرب فى قلبه الشىء أو أُشرب حُبَّه : أى خالط حبّه قلبه كأنه شربه. قال تعالى ﴿**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ..**﴾ (٩٣: البقرة) أى: حب العجل (القاموس القويم ١/ ٣٤٤).

(٢) قال الفارسى : ضربوا بأكفهم على أكفهم من الندم. وقال الفراء : يُقال سقط فى يده وأُسقط من الندامة. وسُقط أكثر وأجود.(لسان العرب ـ مادة : سقط) وقال الإمام أبو يحى زكريا الأنصارى =

وهذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور. لكن الناس الذين امتلكوا قَدْراً من البصيرة أو بقية إيمان قالوا: هذه الحكاية سخيفة ، وما كان لنا أنْ نفعلها وندموا على ما كان.

(سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) أى: جاءت أنيابهم على أيديهم ، كأن الندم بلغ أشده ، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصروا بعيونهم ، ورأوا أن ذلك باطل وخُسْرَان ، أى : قالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاءٌ إلى الله عزوجل.

ثم رجع موسى بعد أنْ تقَّى وَحْىَ الله ، وأخذ الألواح ، وبها من كل شىء موعظةً وتفصيلاً لكل شىء.

قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ.. (١٥٠)** ﴾ (الأعراف)

وكوْنُ موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضبان أسفاً ، يدلُّنا على أنه علم الخبر بحكاية العجل ، والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسمَّوْها «المواجيد النفسية» أى : الشىء الذى يجده الإنسان فى نفسه ، وقد يُعبَّر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية ، ولذلك تجد فارقاً بين مَنْ يحزن ويكبت فى نفسه ، وبين مَنْ يغضب.

= فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» (ص ١٥١) : «إن قلت : كيف عبَّر عن الندم بالسقوط فى اليد ؟ قلت : لأن عادة من اشتد ندمه على فائت ، أن يعضَّ يده غماً ، كما في قوله تعالى : ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**﴾ (٢٧ : الفرقان) فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها».

فمَنْ يغضب تنتفخ أوداجه ، ويحمر وجهه ، ويستمر هياجه ، وتبرق عيناه بالشر ، وتندفع يداه ، وصار موسى إلى الحالتين الاثنتين ، وقدَّم الغضب لأنه رسول له منهجه . ولا يكفى في مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لا بُدَّ أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح.

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج ، بل يظهر الغضب وهو عملية نزوعية ، فالحزن قد اشتد عليه وتمكّن منه ، فقال لهم:

﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ (١٥٠)﴾ (الأعراف)

فقوله سبحانه : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ... (١٥٠)﴾ (الأعراف)

أى : استبطأتمونى. وهذا نتيجة لذهاب موسى لثلاثين ليلة وأتمها بعشر. فتساءل موسى : هل ظننتم أننى لن آتى؟ أو أننى أبطأت عليكم ؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلى ، أو من أجل إله قادر؟

فهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطأتمونى ، أو خفتم أن أكون قد متّ ، فهل كنتم تعبدوننى أو تعبدون ربنا؟ ثم : ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ..(١٥٠) ﴾ (الأعراف).

وهنا فى هذا الحديث القدسى: «فلما عاين ألقى الألواح».

ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقال عنها الحق سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ (١٤٥) ﴾ (الأعراف)

وقد فصَّل الحق سبحانه ما فى الألواح فى قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ (١) بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (المائدة)

فالتوراة فيها نور وهدى ، ويحكم بها النبيون والربانيون والأحبار بالوسيلة التى طلب الله منهم أن يحفظوها ، وبما طلبه رسولهم منهم أن يحفظوا هذه التوراة.

وقد كتب الحق على اليهود في التوراة التى وصفها من قبل بأنها هدى ونور ، كتب وأوجب عليهم أن النفس بالنفس.

هذه الألواح بما فيها من وصايا وأحكام ألقى بها موسى ، ثم ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ... ﴿١٥٠﴾﴾ (الأعراف)

وهذا نزوع غضبىٌّ جعله يأخذ برأس أخيه ، كأن الأُخوَّة هنا لا نفعَ لها، فماذا كان رَدّ الأخ هارون؟

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ (الأعراف)

ونلحظ أن هارون قال لأخيه ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ (الأعراف) ولم يقل «ابن أب» ،

(١) الحَبْر: العالم ، وجمعه أحبار .(القاموس القويم ١/ ١٤٠). وهو العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه .(اللسان ـ مادة : حبر).

لأن أبا موسى وهارون طُوى اسمه فى تاريخ النبوات ، ولم يظهر عنه أىّ خبر ، والعلم جاءنا عن أمه ؛ لأنها هى التى قابلت المشقات في أمر حياته ؛ لذلك جاء هنا بالقدر المشترك البارز فى حياتهما.

وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما ـ موسى وهارون ـ وهو أخوة الأم، وله وجود مستحضر فى تاريخهم ، أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً ، وكل الآيات التى جاءت عن موسى متعلقة بأمه ؛ لذلك نجد أخاه هارون يُكلِّمه بالأسلوب الذى يُحنِّنه:

﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴿١٥٠﴾ ﴾ (الأعراف)

وما دام قد قال: ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴿١٥٠﴾ ﴾ (الأعراف) فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذى أدَّى ما عليه ، لدرجة أنهم فكروا فى قتله.

ويتابع الحق سبحانه بلسان هارون: ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (الأعراف)

والشماتة هى إظهار الفرح بمصيبة تقع بخَصْم ، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيُفرحهم.

ولقد صنع موسى ذلك ليسمع العذر من هارون ؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله ، وأراد أنْ يُسمعنا ويُسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يُقصِّر .

قال : إن القوم استضعفونى لأنى وحدى ، وكادوا يقتلوننى ، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات الطاقة فى الحياة ، حتى أنهم كادوا يقتلونه.

إذن: فهو لم يوافقهم على شيء ، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية؛ لذلك يُذيّل الحق الآية بقوله سبحانه:

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ (الأعراف)

وكأنه يقول لموسى : إنك إنْ آخذتنى هذه المؤاخذة فى حالة غضبك ربما ظُنَّ بى أننى كنتُ معهم ، أو سلكتُ مسلكهم في اتخاذ العجل وعبادته.

وفى آية أخرى قال تعالى إن هارون قال لموسى : ﴿يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾(طه)

موسى عاد من ميقات الله وهو فى قمة الغضب ، وأمسك بأخيه هارون يجُرُّه من رأسه ولحيته ، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين:

الأمر الأول : كيف يُلقِى الألواح وفيها المنهج؟

والأمر الثانى : كيف يأخذ أخاه هذه الأَخْذة قبل أنْ يتبيَّن وجه الحق منه؟

ولذلك قال موسى : ﴿رَبِ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ (الأعراف)

قال : يا ربِّ اغفر لى ، إنْ كان قد بدرَ مِنِّى شيء يخالف منطق الصواب والحق ، واغفر لأخى هارون ما صنع ، فقد كان يجب عليه أنْ يأخذَ

فى قتال مَنْ عبدوا العجل حتى يمنعهم ، أو ينالوا منه ولو ما دون القتل جُرْحاً أو خَدْشاً ، ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة.

ثم يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) ﴾ (الأعراف)

وهل للغضب سكوت؟ وهل للغضب مشاعر حتى يسكت؟ نعم ؛ لأن الغضب هيجانُ النفس لتعمل عملاً نزوعياً أمام مَنْ أذنب، فكأن الغضب يُلح عليه ، ويقول للغاضب: اضرب ، اشتم ، اقتل. فشبّه اللهُ الغضب بصورة إنسان يُلحُّ على موسى فى أنْ يفعل كذا ، ويفعل كذا ، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنه.

وأوَّلُ عمل قام به موسى ساعةَ أنْ كان غضبان أَسِفاً أنه ألقى الألواح ، وأول ما ذهب الغضب عنه ، وزايله أخذ الألواح ، وهذا أمر منطقيٌّ ، فالغضب جعله يُلقِى الألواح ، ويأخذ برأس أخيه ، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره ، وطلب من الله أنْ يغفر له ، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب ، وكانت الألواح مُلْقاةً فأخذها ثانية.

ووصف الحق سبحانه الألواح ، فقال :

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) ﴾ (الأعراف)

وقد وصف الحق سبحانه توراة موسى ، فقال:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المائدة)

فالهدى هو الطريق أو الدَّرْب الموصّل للغاية ، وهو ما يدل على الغايات؛ لأن دين الفطرة قد انطمس بعدم تبليغ الآباء إلى الأولاد منهج السماء فى أمور الحياة ومتعلقاتها والقيم التى يجب أنْ تسودَ ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا ، ورحم نسياننا ، فشرّع وأرسل لكل زمان رسولاً جديداً ، وهَدْياً جديداً ليذكرنا.

وقد تعالى فى آية أخرى : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (الأنعام)

والتمام هو استيعاب صفات الخير؛ ولذلك يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴿٣﴾ ﴾ (المائدة)

«أكملْتُ» فلا نقصان. و«أتممتُ» فلا استدراكَ. فالإكمال هو أنْ يأتىَ الشىء على كماله ، وكمالُ الشىء باستيفاء أجزائه ، واستيفاء كل جزء للمراد منه. وقد أتمَّ الله استمرار النعمة بتمام المنهج.

ولكن ، لماذا جاء بالتمام على الذى أحسن فى أمر موسى عليه السلام؟

جاء ذلك ؛ لأن الذين تصدَّوْا للجاج والجدل معه ﷺ هم اليهود. وحينما جاء موسى ـ عليه السلام ـ بالتوراة كما أنزلها الله عليه عاصره أناس آمنوا بما فى التوراة ، وكانوا من الناجين ، وقد ماتوا.

أما الذين استمرت حياتهم إلى أنْ جاء رسول الله ، فكان المطلوب منهم أن يؤمنوا به ، لأن الحق أوضح لهم فى التوراة أن هناك رسولاً قادماً ، ولا بُدَّ أنْ تؤمنوا حتى تتم نعمة الإحسان عليكم ؛ لأنكم وإنْ كنتم مؤمنين بموسى وعاملين بمنهجه فلا بُدَّ من الإيمان بمحمد ﷺ .

والسابقون لكم أَحْسَنُوا فى زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام ، وجاء محمد بالرسالة الخاتمة . فإنْ أردتُمْ أن يُتِمَّ الله عليكم الحسن والكرامة والنعمة ، فلا بُدَّ أنْ تعلنوا الإيمان بمحمد ﷺ ، منكم مَنْ أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وآمنوا بمحمد فتمَّ لهم الحُسْن.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴿١٥٤﴾﴾ (الأنعام)

أى: أنه مناسب لزمنه أي: القيم التى تناسب الوقت الذى يعيشونه ، فإذا ما جِئْنا بتفصيل جديد فى القرآن فهو مناسب لوقته.

ولقائل أنْ يقولَ : هنا تفصيل ، وهنا تفصيل ، فما الفَرْق بين تفصيل وتفصيل؟ نقول: إن كُلَّ تفصيل مناسبٌ لزمنه ، وآيات القرآن مُفصّلة جاهزة ، ومُعدَّة لكل زمن وللناس جميعاً ، إلى أنْ تقومَ الساعة.

وفى موضع آخر قال تعالى:

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (البقرة)

فالكتاب هو التوراة ... والفرقان هو الأشياء التى يُفرِّق الله فيها بين الحق والباطل ، فكأن «الفرقان» يُطْلَق مرة على التوراة ؛ لأنها تُفرِّق بين الحق والباطل، ويُطْلَق أيضاً على كل ما يُفَرِّق بين الحق والباطل .

ولذلك سُمِّيَ يوم بدر «يوم الفرقان» ؛ لأنه فرَّق بين الحق والباطل ، فكأن منهجَ الله وكتابه يُبيِّن لنا أيْنَ الحق ، وأين الباطل ، ويُفرِّق بينهما.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (المائدة)

ولا يقول موسى لقومه ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴿٢٠﴾﴾ (المائدة) إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التى أنعم الله بها عليهم ، فكأن قوم موسى قد أرهقوه وتحمَّل منهم الكثير ؛ لدرجة أنه قال لهم على سبيل الزَّجر ما قد يجعلهم يفيقون وينتبهون ويفطنون إلى ذِكْر نعمة الله عليهم.

ومعنى ذِكْر النعمة هو الاستماع إلى منهج الله وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهى.

فذِكْر النعمة يؤدى إلى شكر المنعم ، ويؤدى أيضاً إلى الاستحياء من أن نعصى مَنْ أنعم ، ويجعلنا نستحى أنْ نأخذَ نعمته لتكونَ مُعيناً لنا على معصيته.

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴿٢٠﴾﴾ (المائدة)

وهى نعَم كثيرة تمتَّعوا بها ، إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق الأعظم ، وتُبيِّن القدرة مجالات تصرُّفها ، فقد ضرب موسى البحر فصار كل فِرْق كالطَّوْد العظيم ، وكأن الماء صار صخراً ، وضرب موسى الصخر فتفجرت المياه.

إنها عجائب القدرة ، ألم يُظلِّلكم بالغمام؟ ألم يُنزِل عليكم فى التَّيْه المنّ والسَّلْوى؟

كُلُّ هذه النعم ، أَلاَ تستحق الذكر لله والشكر لله والاستحياء من أنْ تعصوه ، أو أنْ تُرهِقوا الرسول الذى جاء لهدايتكم؟

إن كُلَّ هذه النعم تستحق الشكر ، والشكر ذِكْر ، وأكثر من هذا فإن الحق سبحانه أرسل إليهم كثيراً من الرسل ، فكلما أدركتْهُم غفلة فإن الحق يُرسِل لهم نبياً ، فكلما عَصَوْا الله واستعصتْ داءاتهم أرسلَ لهم رسولاً.

وكان عليهم أنْ يعلموا أنَّ داءاتهم قد كثُرَتْ ، وصار مرضهم مُسْتعصياً ؛ لأنه لو لم يكُنْ المرض مُسْتعصياً لَمَا كانوا فى حاجة إلى هذه الكثرة من الأطباء والأنبياء ، ومع ذلك رحمهم الله ، وكلما زَادَ داؤهم أرسل لهم نبياً.

ولم يَكْتَفِ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بأنْ جعل فيهم أنبياء ، بل قال:

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴿٢٠﴾﴾ (المائدة)

ولكن ، هل قابل بنو إسرائيل نعم الله الكثيرة بالشكر والامتثال للمنهج؟ هل التزموا بما جاء في هذه الألواح؟

قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ (النساء)

فالكلام المنزَّل من الله وُضِع أولاً وَضْعه الحقيقى ، ثم أزالوه وبدَّلوه ،

ووضعوا مكانه كلاماً غيره ، فقوله تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴿٤١﴾﴾ (المائدة) ، فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدَّس من موضعه الحق ، ووضعوه موضع الباطل ، بالتأويل والتحريف حَسْب أهوائهم بما اقتضتْه شهواتهم ، فكأنه كانت له مواضع ، وهو جدير بها.

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (١٣ : المائدة)

فَهُمْ على قدر كبير من السوء ، بدرجة أنستهم الشيء الذى يأتى لهم بالحظِّ الكبير ، مثل نسيانهم البشارات بمحمد ﷺ وكتمانها ، ولو كانوا قد آمنوا بها لكان حظُّهم كبيراً ، ذلك أنهم نسُوا أمراً كان يعطيهم جزاءً حَسَناً.

والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب ، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكُنْ على بالهم ، فلو كانت كتب المنهج على بالهم لظلُّوا على ذِكْر منه ، كما أنهم كتموا ما لم ينسُوه ، والذى لم ينسوه ولم يكتموه حرّفوه ولووْا ألسنتهم به.

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، ولكنهم جاءوا بأشياء وأقاويل ، وقالوا إنها من عند الله ، وهى ليست من عند الله.

يقول الحق سبحانه :

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة)

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد هنا أنْ يُبيِّن لنا مدى تعمُّد هؤلاء للإثم ، فهم لا يكتفونَ مثلاً بأن يقولوا لغيرهم : اكتبوا ، ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا أن الأمر قد تَمَّ كما يريدون تماماً ، فليست المسألة نزوة عابرة ، ولكنها مع سَبْق الإصرار والترصُّد، وهم يريدون بذلك أنْ يشتروا ثمناً قليلاً ، هو المال أو ما يُسمَّى بالسُّلْطة الزمنية ، يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان.

إنهم افتروا على الله الكذب عندما فعلوا ذلك ؛ نَسُوا حظاً مما ذُكِّرُوا به ، وكتموا بعضاً من الكتب المنزَّلة إليهم ، وحَرَّفوا الآيات المنزَّلة إليهم ، وجاءوا بأقوال من عندهم ونسبوها إلى الله.